

Distr.
LIMITED

E/ESCWA/ECW/2017/Brief.5
8 November 2017
ORIGINAL: ARABIC

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)

المقاربة الإصلاحية لقضايا النساء في الإسلام من داخل المؤسسة الدينية: الرابطة المحمدية للعلماء نموذجاً

الدكتورة أسماء المرابط



الأمم المتحدة
بيروت، 2017

17-00665

مقدمة

لا شك أن ما يسمى اليوم بقضية النساء في الإسلام بات جوهر التحديات الاجتماعية والسياسية التي تواجهها معظم الدول الإسلامية. ومنذ عصر النهضة، ما زالت هذه الإشكالية رهينة الازدواجية بين رؤية دينية تقليدية ترفض أي إصلاح، ورؤية حديثة تعتبر الدين كله سبباً لتأخر مجتمعاتنا وعائقاً أمام تحرر النساء والرجال.

"الإسلام كرم النساء وأعطاهن جميع حقوقهن"، هذا هو الشعار الذي يتخذه حالياً الخطاب الإسلامي المتكرر والإجابة الوحيدة عن التساؤلات المطروحة حول هذه الإشكالية في المجتمع. ومع أن هذه العبارة صحيحة في عمقها، أفرغت تماماً من معناها لأن القيم الإسلامية المعنية بمكانة المرأة ووضعها القانوني وكرامتها لا تُترجم على أرض الواقع في مجتمعاتنا الإسلامية، ولا يُدافع عنها سوى نظرياً في خطاب انفعالي وعاطفي.

كيف يمكننا إذاً اليوم الاستجابة لمتطلبات حقوق الإنسان في العالم، ولا سيما المساواة بين الرجال والنساء، في حين لا يقدم الخطاب الديني جواباً واضحاً في هذه المسألة؟ و"المساواة" تعني المساواة في الحقوق والحرية والكرامة الإنسانية، لا "التشابه" أو التساوي على المستوى البيولوجي، وهي مساواة في الحقوق مع مراعاة الاختلافات الفطرية والخلقية بين الرجال والنساء.

وفي الإسلام بؤادر نهضة نسائية - وإن كانت محصورة في الأقلية - تراهن على تجديد الخطاب بتجاوز الخطاب الإسلامي التقليدي وتنتقد الخطاب النسوي المهيمن الذي يفرض سبيلاً واحداً للتحرر ويقصي أي مرجعية دينية.

ولا شك أننا اليوم أمام سبيل ثالث لتحرير النساء، يتمثل في قراءة جديدة للنصوص الدينية من قلب المرجعية الدينية. ويشكل هذا السبيل منفذاً للخروج من هذا المأزق التأويلي والفكري الذي يتخبط فيه الخطاب الديني اليوم أمام قضايا مزعجة كحرية العقيدة والحريات الفردية وقضايا النساء.

ولعلّ هذا السبيل أحد المسارات النادرة التي ستسهم في تعزيز الملاءمة والمصالحة بين الإسلام، بوصفه مرجعاً أساسياً، ومنظومة حقوق الإنسان من جهة وتحدي الحداثة المعولمة والمعاصرة من جهة أخرى.

المقاربة الإصلاحية والسبيل الثالث

عن أي مقاربة إصلاحية نتحدث؟

انطلاقاً من هذا السبيل الثالث، نعلم أن الإشكالية لا تكمن في الدين في مفهومه الروحاني والنصي، بل في التأويلات البشرية التي تراكمت في الإنتاج الديني وفي العقلية، مبتعدة عن النصوص الأصلية والقرآن الكريم. واحتلت هذه المنظومة التفسيرية والفقهية الأولوية في ظل صراعات اجتماعية سياسية تُقصي المرأة عن المشاركة في الحيز الاجتماعي والمعرفي.

ولا بد من التذكير بأن قضية المرأة ظلت، منذ عصر النهضة، محصورة في الرؤية التقليدية والمحافضة التي ركزت على "حقوق المرأة المسلمة وواجباتها"، رغم المقاربة التقدمية لبعض المصلحين ومن بينهم الشيخ الإمام محمد عبده¹.

1 انظر ما كتبه مسلمات جامعات كالأساتذة زيبا مير حسيني الإيرانية، وأسماء بارلاس الباكستانية، وعزيزة الهبيري، إضافة إلى الأنشطة التي تنفذها شبكة "مساواة" ومؤسسة كرامة على الموقعين التاليين: www.karamah.org؛ www.musawah.org.

فقد كانت الرؤية الإصلاحية في عصر النهضة نابعة من أيديولوجية تقاوم المستعمر الغربي، أكثر منها فكراً إصلاحياً حقيقياً يدافع عن حقوق المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية.

ومن المهم اليوم تجاوز هذه المقاربة المحصورة في مفهوم "الغرب" العدائي والاستعماري، والرافضة لمبادئ العدل والمساواة والحرية، ولا سيما في قضايا المرأة، لمجرد أنها نابعة من الفكر الغربي. وتدفعنا هذه المعضلة في دوامة من الخوف والاحتراز من مفاهيم "غربية"، مع أنها في الحقيقة مفاهيم كونية وإنسانية، نرفضها باسم المحافظة على الهوية² والتشبث الأعمى بالأصالة.

ينبغي إذاً صدّ هذه المقاومة التقليدية التي ما زالت خاضعة لقراءة عقائدية مسييسة، واقتراح مقاربة إنسانية وإصلاحية مفتوحة على الفكر الإنساني العلمي والأخلاقي.

1- إجراء دراسة نقدية للإطار التاريخي للوحي

لا بد من إعادة قراءة السياق التاريخي والتقليدي للوحي الذي ظل أسير الاكراهات السياسية، ولا بد من دراسة أسباب النزول التي عكست أحكاماً قرآنية متجددة مقارنة بالعرف التمييزي السائد في تلك العصور.

فقد حاول الوحي القرآني التصدي لبعض العادات ولجميع أنواع التمييز من خلال إقرار منهجية تحريرية دامت 23 عاماً، مثل إقرار المساواة الروحية بين المرأة والرجل. واشتكت صاحبات عصر الرسالة على النبي عليه الصلاة والسلام من عدم ذكرهن في القرآن الكريم، وهو نوع من النقد المباشر للوحي، فلم يتأخر الرد إذ نزل الوحي بآيات تستجيب لمطالبة النساء بالمساواة في ذكرهن³.

كما وردت في الوحي القرآني أمثلة كثيرة عن نساء تركن بصماتهن في مسار التاريخ وارتقين نموذجاً للحرية والاستقلالية والحكم الرشيد مثل بلقيس، ورمزاً للتضحية والولاء مثل السيدة مريم...

ولا نرى هذه النماذج النسائية في التعليم الديني ولا في المقررات التعليمية ولا في الخطاب الديني المعاصر الذي يركز على الذكور ويهمش إسهامات النساء، ما لا يساعد على ترسيخ ثقافة المساواة لدى الأجيال الصاعدة.

ويذهب القرآن أيضاً إلى تشجيع المرأة على المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية مثل البيعة. ويصعب تصور التمكين السياسي للمرأة في تلك العصور لأن التراث الإسلامي قد همّش مساهمة النساء في المجال السياسي⁴.

ونتيجة لاحتكار الرجال للمعرفة الدينية وإقصاء النساء تاريخياً، تضاعلت مكتسبات الوحي تدريجياً. وأدّى انتشار ثقافة الأعراف الذكورية إلى إجهاض هذه الثورة الروحانية والنفس التحريرية لرسالة الإسلام.

2 لتتذكر في هذا الإطار حديث "الحكمة ضالة المؤمن".

3 ذكر الإمام الطبري في أسباب نزول الآية الكريمة: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"، نقلاً عن عبد الرحمن بن شبيب قوله: سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [...] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا".

4 يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى الموسوعة العلمية المهمة "المحدثات" للدكتور أكرم الندوي، الصادرة في عام 2007.

ويعود تحريف هذه الثورة إلى ثلاثة أسباب:

- النزاعات السياسية بعد وفاة الرسول عليه السلام والصراعات السياسية حول الحكم؛
- الفتوحات الإسلامية وتبني التقاليد الثقافية لحضارات أخرى تدريجياً؛
- بداية تدوين العلوم الإسلامية، ولا سيما علم الحديث والفقه خلال القرنين الثامن والتاسع ميلادي في جوٍّ من الاضطرابات السياسية الصعبة، ما جعل صياغتها بعيدة عن روحية الرسالة الأخلاقية. ويرتكز الفقه، الذي يُعتبر أهم مصادر التمييز ضد النساء، على العرف بعيداً عن مقاصد الشريعة.

2- تجاوز الإشكالية

يتطلب تجاوز الإشكالية ما يلي:

(أ) معالجة قضايا المرأة بالرجوع إلى المفهوم القرآني الشامل للإنسان: فعندما يحصر الخطاب المعاصر قضايا المرأة في سجلات ضيقة تُعنى حصراً بحقوق المرأة المسلمة وواجباتها، يعطي انطباعاً بأن المرأة المسلمة لديها "وضع خاص" مختلف عن الرجل الذي يتماشى مع المعايير الكونية. وهذا يتناقض مع الخطاب القرآني الذي يتوجّه إلى الإنسانية جمعاء، متجاوزاً الفوارق الجنسية أو العرقية أو الاجتماعية.

(ب) إجراء قراءة جديدة للنص مع مراعاة ما يلي:

- الطابع الشمولي للقرآن؛
- الطابع المقاصدي الذي لم تعطه الرؤية التقليدية الأهمية الملائمة، مع أنه ينبغي أولاً التركيز على مقاصد الأحكام القرآنية؛
- الطابع الاجتهادي الذي طالما استرشد به العلماء للتصدي لمتغيرات الواقع.

وتستند المقاربة الإسلامية الجديدة لموضوع المساواة بين المرأة والرجل إلى أربعة أبعاد أساسية للنص القرآني:

3- البعد الأخلاقي

هو جوهر الرسالة والنص القرآني، ويشمل عدة مبادئ منها **مفهوم التوحيد** (لا إله إلا الله) الذي يتطابق مع فلسفة تحرير الإنسان، ويوازي في مدلولاته المساواة بين البشر إنثاً وذكوراً، ويدعو إلى تأليه الله وحده، ويرفض جميع أنواع الشرك بالله وهيمنة كل قوة مادية أو مالية أو دينية أو غيرها.

كما يتمحور النص القرآني حول مفهوم ثانٍ، هو **مفهوم العلم** (اقرأ)⁵ الذي له دور أساسي في الوعي السياسي أو الاجتماعي، إضافةً إلى مفهوم العقل، فالقرآن يحث الإنسان رجلاً وامرأة على استعمال العقل والبيان

5 حديث "طلب العلم فريضة على كل مسلم".

والحكمة⁶. والمفهوم الثالث الهامّ هو مفهوم العدل بين جميع البشر بغض النظر عن اختلافاتهم الجنسية أو العرقية أو الاجتماعية.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يفرض العدل لا الإيمان، وهذا ما تبيّنه الآية الكريمة: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" (النحل: 90)، وحرية الاعتقاد في القرآن واضحة: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (الكهف: 29).

وللأسف، همّش التوظيف السياسي للدين هذه المفاهيم الأساسية واختزلها في مفهوم شائك هو مفهوم "الطاعة". فمن الطاعة السياسية وطاعة الحكام في المجال العام، انتقلنا إلى الطاعة الزوجية في المجال الخاص. وصار هذا المفهوم عائقاً أمام أي نقاش حول المساواة في الحقوق بين النساء والرجال، وبات مفهوم "طاعة المرأة لزوجها" من أبرز المبادئ الإسلامية ومن شعائر الدين التي لا تقبل الجدل.

4- البعد الإنساني

يتعلق هذا البعد بالعودة إلى مفهوم مركزي في النص القرآني وهو مفهوم الإنسان الذي يشمل الرجال والنساء في إنسانيتهم وروحانيتهم - "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي" (سورة الحجر: 29). فالإنسان في الخطاب القرآني، امرأة كان أم رجلاً، هو جوهر الخلق وغايته، ولكن هذا المفهوم في الخطاب الديني التقليدي غالباً ما يقتصر على الرجال. ويبدو أن النساء، حسب هذه الرؤية، كائنات ثانوية في حين أن القرآن لا يعطي المرأة هذه المنزلة الثانوية في أي جزء منه.

لذلك، لا بد اليوم من الرجوع إلى مفهوم الإنسان إذا أردنا فهم معاني رسالة الوحي... عندها يتجسد جمال البعد الإنساني للمساواة بين الرجال والنساء وعمقه. ويقول الطاهر حداد في هذا السياق إن احتقار المرأة صورة لاحتقار الإنسان. ففي الإسلام، يتساوى بنو البشر في صفتهم البشرية، ويرتبط تقييم أخيرهم بعمله وبالنفعة الذي يحققه للمجتمع وللآخرين.

5- البعد المفاهيمي

أورد القرآن الكريم آيات تنص على المساواة بين الرجال والنساء على عدة مستويات من خلال مجموعة من المفاهيم المحورية، يُمكن تلخيصها في ثلاثة عشر مفهوماً و21 آية.

ومن هذه المفاهيم الأساسية التي همّشتها التأويلات التقليدية البعيدة عن المبادئ المقاصدية للرسالة، نذكر ما يلي:

النفس الواحدة: وهو يعبر عن مفهوم المساواة في الخلق، إذ لا يورد النص القرآني بتاتاً مفهوم خلق المرأة من ضلع آدم⁷.

التقوى: وهو معيار أساسي في تقييم الإنسان، رجلاً كان أم امرأة في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: 13).

6 مِيزَت القراءة التقليدية بين عقل الرجل وعقل المرأة اعتماداً على حديث نبوي شريف: "ناقصات عقل ودين"، ويمكن الرجوع إلى الدراسة النقدية لنادية الشرفاوي في كتابها "ناقصات عقل ودين بين مدلول النص واستنباطات الفقهاء وقفة مع أهمية السياق في فهم الحديث النبوي الشريف"، مؤسسة جسور للنشر والتوزيع، وهو قيد الطبع.

7 يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء: 1). والجدير بالذكر أن التفسيرات التقليدية لرواية خلق حواء من ضلع أعوج ترجع بمعظمها إلى ما يسمى بالإسرائيليات.

(13). والتقوى هي المساواة في العدل والنزاهة والاستقامة الأخلاقية، في قوله عز وجل: "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" (المائدة: 8).

الخلافة: أي المساواة في مهمة الخلافة في الأرض وبناء الحضارة الإنسانية في قوله عز وجل: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: 30).

العمل الصالح: وهو المعيار الذي يعتمد لتقييم النساء والرجال وتمييز الصالح من الطالح في قوله عز وجل: "مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل: 97).

المعروف: ذكر عشرين مرة في سورة البقرة وهو أساس العلاقة الزوجية القائمة على الرحمة المتبادلة. ويقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (البقرة: 228)؛ "فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" (البقرة: 231)؛ "فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (البقرة: 232).

والزواج، كما يصفه القرآن، هو **ميثاق غليظ** إذ يقول الله سبحانه وتعالى: "وَأَخَذَنَّا مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا" (النساء: 21)، ويحدد بالتساور والتراضي⁸ والفضل والمودة والرحمة والسكينة...

ولم تأخذ التأويلات التفسيرية والفقه هذه المفاهيم في الاعتبار بل همشتها واستبدلتها بمبادئ أخرى بعيدة عن الرسالة القرآنية مثل عبودية الزوجة وترسيخ تمتع الزوج بالسلطة المطلقة⁹.

أما الفقه فيعرف الزواج، الذي يعتبره القرآن ميثاقاً غليظاً، بأنه عقد يتيح للزوج التمتع بجسم المرأة كله أو بجزء منه، حتى أن بعض المذاهب تقارن عقد الزواج بعقد التملك، والبعض الآخر بعقد البيع والشراء¹⁰.

والولاية مفهوم آخر يجسد عمق المساواة في رسالة الإسلام ويؤكد على المساواة الاجتماعية والسياسية بين الرجال والنساء سواء في المجال الحقوقي الخاص أو في المجال العام.

وفي الحياة الزوجية، تُعدّ الولاية مسؤوليةً يتشاركها الزوجان في حين أنها مسؤولية سياسية مشتركة في الحياة العامة: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة: 71).

وقد انعكس هذا المفهوم التشاركي في الإصلاح الأخير لمدونة الأسرة المغربية في عام 2004، حيث ورد أن "مسؤولية الأسرة تحت رعاية الزوجين"¹¹.

8 يقول تعالى: "وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَعْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَعْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة: 231-232).

9 انظر ما يقوله الإمام الغزالي حول هذا الموضوع في إحياء علوم الدين (جزء 2، ص 81)، وابن القيم الجوزية في إعلام الموقعين (جزء 2، ص 6).

10 عبد الرحمن بن عوض الجزيري: "الفقه على المذاهب الأربعة"، بيروت 2005، كتاب النكاح، ص 7.

11 تنص ديباجة مدونة الأسرة المغربية على ما يلي: "أولاً، تبني صياغة حديثة بدل المفاهيم التي تمسّ كرامة المرأة وإنسانيتها، وجعل مسؤولية الأسرة تحت رعاية الزوجين". وقد استبدل هذا المفهوم الجديد ما سبقه من مقتضيات توجب أن يكون الزوج رئيس الأسرة ورب العائلة.

الآيات التي ترمز إلى المساواة بين النساء والرجال:

مع أن الخطاب القرآني له صيغة ذكورية أحياناً كما نراه في لغات أخرى، تُستعمل هذه الصيغة بصفة "محايدة". وترد في القرآن أيضاً آيات تعكس مساواة متكاملة في الأمر أو النهي أو التنبيه، وتتوجه إلى الرجال والنساء في نوع من التساوي اللغوي والمعنوي.

ومن الصعب ذكر جميع الآيات التي تكرر هذه المساواة، لذا سنكتفي ببعض الأمثلة. وفي ما يلي آية تكشف بوضوح المساواة بين النساء والرجال مع الإصرار على صفتها الإنسانية: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الأحزاب: 35).

كما تجسد آيات أخرى المساواة بين النساء والرجال في الأعمال: "مَنْ عَمَلٍ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل: 97).¹²

6- البعد الاجتماعي

لا يمكن قراءة البعد الاجتماعي من دون الرجوع إلى السياق الذي نزل فيه الوحي الإلهي. وفي حين يُعتبر كل من البعد الأخلاقي والإنساني كونياً وأزلياً، فالبعد الاجتماعي هو مجموعة آيات تستجيب للسياق الاجتماعي لزمان الوحي، حيث كانت الرسالة القرآنية تحاول التعامل مع التقاليد والأعراف آنذاك مثل الزواج والطلاق والميراث وغيرها.

وتنطوي هذه الآيات ذات البعد الاجتماعي على مبادئ العدل والإنصاف التي تمثل جوهر الرسالة القرآنية كلها. ولا بد أن نستنبط من هذه الآيات المقاصد والغايات الكبرى، ونرى كيف يمكن ترجمتها اليوم في سياقنا المتغير. وينعكس هذا البعد الاجتماعي في خمس آيات تقريباً، متعلقة بتعدد الزوجات والإرث والشهادة والقوامة وآيات الطلاق.¹³

وقد أخرجت هذه الآيات من الإطار العام للمساواة الذي يتوافق مع رؤية القرآن الشمولية، وأخضعت لتفسيرات وقرارات حرفية وتمييزية أسهمت في الإبقاء على رؤية سلبية للإسلام، تُظهره كدين يقمع النساء ويفتقر إلى مفهوم المساواة.

12 وردت في القرآن إحدى وعشرون آية حول المساواة، تخاطب الذكور والإناث في قضايا متعددة. فقد خاطب القرآن الرجال والنساء بشأن العمل الصالح في قوله عز وجل: "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا" (النساء: 124)، وفي قوله تعالى: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَبْصِعُ عَمَلٍ غَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ فَأَلْزَمْنَا هَاجِرُوا وَآخَرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ" (آل عمران: 195). كما يتوجه القرآن الكريم إلى الذكور والإناث على حد سواء في خطابه عن الطلاق (النساء: 130)، والولاية (التوبة: 195)، والإيمان (النحل: 97)، وتساوي الخلق (الحجرات: 13)، والمساواة الروحية (غافر: 40؛ الفتح: 5)، والمساواة في النصيب في الإرث (النساء: 7)، والمساواة في التعامل مع الخلافات الزوجية (النساء: 35)، والمساواة في تحمل الذنب (الأعراف: 22)، والمساواة في الشهادة (النور: 6-9)، والمساواة في الخطاب (الأحزاب: 35)، والمساواة في الزواج بغير المسلم (البقرة: 221)، والمساواة في العقاب (النور: 2)، والمساواة في النهي (النور: 3)، والمساواة في الصفات الإنسانية (النور: 26)، والمساواة الأخلاقية (النور: 30 و31)، ويوجه الأمر لهما على قدم المساواة (الأحزاب: 36).

13 "النساء والرجال في القرآن: أية مساواة"، كتاب حول الآيات المتعلقة بالقوامة والتعدد والإرث والطلاق وغيرها، من منشورات ملتي الطرق، ترجمة بشرى الغزالي، 2015.

والغريب أنه من بين 6233 آية قرآنية، تستند التفسيرات والخطابات الدينية والفقه، الذي يُعد المرجع الإسلامي في قضايا النساء، إلى خمس آيات فقط.

وإن أُخرجَت الآيات المتعلقة بالتعدد والإرث والشهادة والقوامة والطلاق من سياقها ومن النظرة الشمولية والمقاصدية للقرآن الكريم، ستبقى حاملةً نوعاً من التمييز ضد النساء، ولا سيما عند قراءتها على ضوء المقاربة التقليدية الحرفية.

ولا بد من إعادة قراءة هذه الآيات الخمس مع مراعاة البعد الأخلاقي والإنساني والمفاهيمي للقرآن. فقد أدت القراءة التجزئية والانتقائية التي أخرجت هذه الآيات من سياقها العام إلى اختزال قضايا المرأة كلها في تأويل حرفي لخمس آيات.

وفي سياقنا المعاصر، لا يمكن تفسير هذه الآيات إلا استناداً إلى قيم قرآنية شمولية تعكس المساواة، ولا بد من قراءتها على نحو ملائم ومرتبطة بالسياق.

ومن بين 6233 آية قرآنية، ارتكز التفسير التقليدي على خمس آيات ذات بعد اجتماعي، أصبحت مرجعاً للرؤية التقليدية في قضايا النساء، إذ يتم الانطلاق منها لتفسير العلاقة بين النساء والرجال. وقد هُمّش ما تبقى من آيات تعالج الأخلاقيات العامة والمفاهيم المحورية للمساواة، وتدعو بوضوح إلى المساواة بين الرجال والنساء.

وقد فسّر الفقهاء المسلمون الأوائل تلك الآيات ذات البعد الاجتماعي على ضوء مقتضيات مجتمعهم والعقليات السائدة آنذاك، ولم يعتبروا تفسيراتهم البشرية معايير فقهية ثابتة ومقدسة لا تقبل النقاش. ولا تزال هذه التفسيرات قائمة اليوم في ظلّ تجمد الفكر الإسلامي وتراجع الحضارة الإسلامية وتهميش المبادئ الأخلاقية الواردة في النصوص الدينية، ولم يعد اجتهاد المفسرين ينطلق من السياق. ومع كل احترامنا للجهود التي بذلها سلفنا، لا يمكننا أن نبقي رهائن رؤيتهم في ظل تطور المعايير الاجتماعية والعالمية والحقوقية. وفي المقابل، لا بد من الرجوع إلى الرؤية الشمولية للقرآن ووضع إشكالية النساء في إطارها الأصلي وتفسيرها على ضوء الأخلاقيات الإنسانية والقيم القرآنية العالمية والآيات والمفاهيم المحورية للمساواة.

وينبغي أن يبقى تحقيق العدالة والإنصاف الغاية الأولى المرجوة من تفسير النصوص الدينية وتطبيقها في سياقنا المتطور، لأن هذه الغاية أبدية وتطبيقها يرتبط بالسياق، فالأحكام تتغير حسب الزمان والمكان. وفي هذا السياق، يقول ابن قيم الجوزية "إن مقصود (الله سبحانه وتعالى) إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخراج بها العدل والقسط فهي من الدين، وليست مخالفة له"¹⁴.

مركز الدراسات والبحوث في القضايا النسائية في الإسلام والرابطة المحمدية للعلماء: ملخص عن المركز وأهدافه

جاءت فكرة تأسيس المركز في سياق إعادة صياغة المفاهيم والمصطلحات الرئيسية على ضوء الرؤية القرآنية الكلية والشمولية، وإعادة بناء الثقافة العامة حول قضايا المرأة. فبين المقاربة التي تتبنى فصل هذه القضايا عن النص كلياً والمقاربة المتجذرة المنفصلة عن السياقات، يأتي تأسيس المركز ليجمع بين التيارين العلماني والتقليدي. ويتبنى المركز منهجاً وسطاً بين التيارين في تحقيق مشروعه الفكري، ويعمل على مستوى أكاديمي راقٍ يراعي النص المؤسس بكليته من دون الالتصاق بالسياق التقليدي في مقاربة القضايا النسائية.

14 ابن القيم الجوزية: "الطرق الحكيمة"، ص 19.

ويسعى المركز إلى تحقيق مجموعة من الأهداف منها:

- مراجعة التراث الإسلامي في ما يتعلق بقضايا النساء واعتماد مقاربة شمولية في النصوص الدينية وفي الواقع؛
 - سد الفراغ العلمي والبحثي في قضايا النساء في الإسلام؛
 - إشاعة خطاب علمي هادئ ورصين حول القضايا النسائية في الإسلام؛
 - النظر في القراءات التحريرية وإعادة صياغتها استناداً إلى نصوص الوحي؛
 - تحديد الالتباس الذي وقع بين نصوص الوحي واجتهادات الفقهاء في الواقع التاريخي بمختلف أشكاله؛
 - تجديد منظور الإسلام للمرأة في اجتهادات مختلف المذاهب الفقهية الإسلامية.
- أهم الانجازات في مجال حقوق النساء:

- إنشاء "شبكة ريادة"، وهي شبكة فكرية عالمية تضم ناشطين في مجال حقوق النساء لتشجيع الحوار وتبادل الأفكار حول حقوق النساء والخطاب الديني؛
- إصدار كتاب جماعي في عام 2014 بعنوان "مبادرة تعميق وتأصيل المعرفة بمفهوم القوامة والولاية". وتتميز هذه المبادرة العلمية بالتابع مقارنة جماعية في التعاطي مع قضايا القوامة والولاية، وباعتماد القرآن المجيد والسنة النبوية إطاراً مرجعياً ومعرفياً؛
- تنويع كتاب "النساء والرجال في القرآن: أية مساواة" لأسماء المرابط بجائزة الأطلس الكبير للترجمة التي منحت للمترجمة بشرى الغزالي؛
- التوقيع على إعلان الإسكندرية حول: حقوق المرأة في الإسلام، الصادر عن مؤتمر "قضايا المرأة: نحو اجتهاد إسلامي معاصر" الذي نظمته مكتبة الإسكندرية؛
- تنظيم مؤتمرات دولية حول مواضيع مختلفة منها:
 - الندوة الدولية حول "ريادة النساء في الإسلام: مقتضيات النص ومعطيات الواقع"، في 10 و11 تشرين الثاني/نوفمبر 2015؛
 - المؤتمر الدولي حول "النساء في الديانات السماوية"، في 12 و13 تشرين الثاني/نوفمبر 2014؛
 - اجتماع الطاولة المستديرة حول "مبادرة تعميق وتأصيل المعرفة لمفهوم القوامة والولاية"، في 8 و9 تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

الخاتمة

يسعى المركز في عمله إلى العودة إلى الرسالة الروحية للإسلام التي تتيح مجالاً واسعاً لإرساء العدل بين الرجال والنساء. وقد حان الوقت اليوم لتجاوز معضلة "وضع المرأة في الإسلام" والرجوع إلى المعنى القرآني الأصلي لمفهوم الإنسان من خلال إعادة قراءة الآيات القرآنية باعتبارها رسالة أخلاقية عالمية تنشر مبادئ أزلية مثل الحرية والعدل والكرامة والمساواة الإنسانية.

والمقاربة الإصلاحية الجديدة للنصوص ضرورية اليوم لنتصدى للتحديات المعاصرة في مجتمعنا. ولا بد من إشراك النساء العالمات والمفكرات والباحثات في هذه الجهود الضخمة، فقيم العدل والإنصاف والقسط التي ينادي بها الدين الإسلامي بوصفها غاية الخلق الكبرى ينبغي أن تنعكس في الواقع الاجتماعي والخطاب الديني والتربية المدرسية.

ويبقى إصلاح قضايا الدين، ولا سيما تلك المتعلقة بالمرأة، مرتبطاً بالممارسة الديمقراطية. فمن الوهم الادعاء بأنه يمكن تحليل قضايا النساء بمعزل عن المشاكل الأخرى التي تتخبط فيها البلدان العربية.

ووحده الإصلاح المتوازي على جميع المستويات السياسية والتربوية والقانونية والدينية كفيل بإخراجنا من هذا المأزق التاريخي.